ASJP
Algerian Scientific Journal Platform

المجلة التاريخية الجزائرية

ISSN: 2572-0023 / EISSN: 2716-9065
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/664

المجلد:05، العدد:01 (2021)، ص54-74

# تاريخ الحركية الدينية في الديانات الابراهيمية

# History of religious mobility in the Abrahamic religions

رشيد عثماني *
جامعة الجزائر 01 (الجزائر)
Otmanirachid08@gmal.com

سعيد رحماني
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة (الجزائر)
Said.2010@gmail.f

**معلومات المقال**

**تاريخ الارسال:**
2021/05/23
**تاريخ القبول:**
2021/06/16

**الكلمات المفتاحية:**
- ✓ تدين
- ✓ يهودية
- ✓ مسيحية

**الملخص:**

مع ظهور الأنبياء ودعوتهم على أرض الميدان، نشأ صراع حاد بين المؤمنين والجاحدين المكذبين، فاليهود المؤمنين المتمسكين بتشريعات النص المقدس، لاقوا تحديا صارخا من أهل ديانتهم، ثم انتهى أمرهم إلى صراع ديني في سبغة سياسية، لتكون نتيجة ذلك تعرضهم للسبي، والحيلولة بينهم وبين تأدية شعائرهم؛ في المسيحية أيضا لاقى تلامذة المسيح عداء ومكائد من اليهود الذين كانت دعوته تعنيهم أيضا، فعاشوا في اضطهاد لقرون عديدة؛ وفي الإسلام أيضا ما إن مات نبيهم حتى ثارت فتن الارتداد عن الدين ومنع الزكاة، فكان ذلك أول تحد للمؤمنين الصادقين، ثم تلتها فتنة خلق القرآن التي كان خلافا دينيا بخلفيات سياسية، وما تلى ذلك من ظهور مداهنة السلاطين والأمراء، وتفشي المجون والفسق في ساحة البلاط وما جاورها، من أولئك المستعدين لبيع الذمم والمبادئ، لينتهي المطاف في الزمن المعاصر بهذه المحنة التي تعيشها الديانات الإبراهيمية، التي صارت أحكامها وتوجيهاتها تدور في فلك دُور العبادة، وفي حيز محدود لا يحق لهم الخروج عنه، فالديانات تعيش حالة شبيهة بالإقامة الجبرية إن صح التعبير.

**Article info**

**Received:**
23/05/2021
**Accepted:**
16/06/2021

**Key words:**
- ✓ religion
- ✓ judaism
- ✓ christian

**Abstract:**

The believing Jews, who adhere to the laws of the sacred text, met a blatant challenge from their people that ended up in a religious conflict in political pretense. As a result, they were exposed to captivity and prevention from performing their rituals. In Christianity, too, the followers of Christ encountered hostility and intrigue from the Jews, whose vocation also concerned them. They lived in persecution for many centuries. In Islam also, as soon as their prophet had died, the temptation of apostasy arose and the forbidding of zakat appeared. That was the first challenge for the true believers, Then followed the sedition of the creation of the Qur'an, which was a religious dispute with political backgrounds In contemporary times, the ordeal of the Abrahamic religions ended up with their rulings

*المؤلف المرسل

# تاريخ الحركية الدينية في الديانات الابراهيمية

**مقدمة**

عندما بُعث الأنبياء الإبراهيميون كان أساس دعوتهم واحد، ينبني أساسا على الإيمان والتصديق بالله الواحد الأحد، ثم الطقوس والعبادات التي هي بمثابة التجسيد العملي لهذا الاعتقاد، وصولا إلى الثمرة الروحية والأخلاقية التي تثمر عن ذلك كله، فلم يعدو فن من فنون الحياة والمعاش إلا وله آداب أخلاقية خاصة به، لكن الظروف والمتغيرات جعلت أصحاب الديانات هذه يطرحون عديدا من التساؤلات، عن كيفية إنزال الواجبات الدينية على هذه التحديات الجديدة التي لم يسبق لهم بها علم، ولم تكن لهم معها تجربة في حياة النبي المؤسس، إضافة إلى ذلك احتكاك وتعايش أهل هذه الديانات وسط حضارات وملل ونحل، فرضت عليهم فلسفتها وقوانين حضارتها، فكان البحث عن سبل التعايش أمرا إلزاميا لا مفر منه، فما أن ينفتح أصحاب الديانات على الحضارة، ويبتعد عهدهم عن زمن نبيهم المؤسس، وانفتاحهم على الشهوات وأطماع الدنيا، ومعرفتهم لفلسفات الشرق والغرب، حتى تظهر بوادر تحديات وأزمات في طريق الملتزم المتدين، تحديات من أبناء الديانة أنفسهم، من أولئك الذين يضيقون ذرعا بالالتزامات الشرعية التي تُقيد أهدافهم وطموحاتهم، وتحديات من أصحاب العقائد المخالفة، الذين ينظرون للمخالف بنظرة العداء والكراهية ودس الدسائس والمكائد والإذاية إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا، لذلك كان التساؤل اللازم طرحه: **هل ما تزال الديانات تحافظ على أصالتها، أم أن الظروف التاريخية التي مرت بها جعلتها تتسم بالحركية والتغيير؟ وهل مست التغيرات جوهرها وأصولها؟**

وقد اعتمدنا في بحثنا هذا منهجين من مناهج البحث يتماشيان مع طبيعة الموضوع: **المنهج الوصفي** الذي ينقل ويحكي الأوضاع الظرفية التي عاشتها كل ديانة وفق نقول أحداث تاريخية صحيحة، قد تتداخل أحيانا وتتفارق بين كل ديانة وأخرى وفق طبيعتها وتركيبتها في ذاتها، وتركيبة معتنقيها من جهة ثانية. **المنهج المقارن** الذي استعملناه تارة في مقارنة حال الديانة الواحدة بين مرحلة تمكينها وقوتها ومرحلة ضعفها وانكسارها، واستعملنا كذلك في الوصول إلى النتائج التركيبية في الخاتمة التي تُعد بمثابة القواعد والمسلمات التي تؤدي إلى التمكين أو الضعف.

وتكمن أهمية الموضوع في كونه يضع النقاط على الأسباب الحقيقية المنقولة تاريخيا التي أوصلت الأديان إلى هذا المنحدر العسير، إذ صار مع مرور الزمن المقدس غريبا والمرجع مرفوضا لعديد من الأسباب والمستجدات، لعل الصعوبة الكبرى هي تبنّي السلطة ورجالها لشكل محدد من أشكال التدين، خاصة الديانات التي تجعل من ما يسمى بالأحكام السلطانية نصيبا من تشريعاتها، فيجد رجال السلطة مع مرور الزمن صعوبة في تقبل هذه التشريعات، فيكون لهم حضور في توجيه التشريعات بشكل مقبول لديهم.

## 1. اليهودية بين الأصول الدينية والبحث عن الهوية

من الأمور الشائعة في الساحة الدينية أن اليهود أمة دينية بامتياز، محافظين على تعاليم دينهم ونصوصه وتشريعاته إذ لا يكاد يخطو اليهودي خطوة إلا بنص ديني، لا سيما وأن لهم عهود ومواثيق مع الرب واجبة

الالتزام، هذا الالتزام الذي يختلف مفهومه وأداؤه من طائفة لأخرى، مما سبب لبعضهم أزمة جعلتهم في خانة المنبوذين في المجتمع اليهودي.

### 1.1. إشكال التدين والانتماء اليهودي

عاش اليهود قبل خروجهم من مصر مع المصريين بعقائد وممارسات دينية، هذه الممارسات التي سيبقى أثرها في نفسية اليهود وشعورهم الديني حتى بعد الخروج من مصر، إذ ما إن خرج بهم موسى من مصر نبذو التوحيد واشتاقوا لعالم الآلهة المتعدد، وضعف شعورهم بالإله المجرد واشتاقوا إلى رؤية إله ملموس، فوقع أول إشكال بينهم وبين نبيهم المؤسس موسى عليه السلام، حيث لم يقتنعوا بعديد من الالتزامات العقدية والتشريعية التي أمرهم بها، وبعد موسى اجتمعوا تحت راية النبي يوشع، ثم ازداد شملهم تماسكا والتماما في عهد النبيين الملكين داوود وسليمان، وبعد سليمان عليه السلام تشتت شملهم من جديد لخلافات سياسية وسلطانية بزغت بينهم فلاحت في الأفق بوادر تعرضهم للسبي والاستعباد من جديد، فسبي الأسباط العشرة على يد البابليين ابتداء، لتكون انطلاقة لعهد يهودي جديد على المستوى التشريعي خاصة، فمنذ تعرض اليهود للسبي البابلي وهم يعانون من مضايقات في سبيل ممارسات شعائرهم، مما كان يدفعهم للتخفي والممارسة السرية لطقوسهم، هذا بالنسبة للمحافظين، أما المتحررين الذين لم يجدوا حرجا في التخلي عن تدينهم، فقد وجدوها فرصة للتخلي عن كل أشكال التدين، وذابوا واضمحلوا في الحضارة البابلية التي كانت تشرئب إليها أعناق شباب ذلك الجيل خاصة، فبقي هؤلاء محافظين على تدينهم لا على أساس الاعتقاد والعبادات، ولكن فقط على حسب الانتساب للجنس اليهودي الذي حصروه في الأسباط العشرة، وكان هذا أول تحد لليهودية، والذي على أساسه سيطرح إشكال الهوية والشخصية اليهودية، إذ أنه بعد رجوعهم من السبي البابلي على يد قورش أبى عديد من الأسباط العودة إلى أورشليم نظرا لحياة البذخ والرفاه التي ألفوها في أرض بابل، إضافة إلى ذلك اختلاطهم بالأغيار عن طريق التزاوج والمصاهرة، فاختلط عرق بني إسرائيل بباقي الأعراق، بالإضافة إلى ذلك بعض أشكال المعاناة التي عاشها اليهود وسط الحضارات والدول الحديثة، وعلى سبيل المثال نذكر المحارق النازية التي ألحقت بهم بأسا شديدا، جعلت اليهود دوما في توجس وخوف وقلق من مخالطة ومعايشة الآخر، مما ولّد لديهم عقدة التواصل والتعامل مع الأغيار، مما يؤثر ذلك على طبيعة وشكل التدين، وربما إنكار الانتماء أصلا، فوجد المفكرون الدينيون اليهود المعاصرون أنفسهم في حيرة، جعلتهم يتأرجحون ما بين مقولات الشريعة اليهودية ما قبل المعاصرة، التي تشير إلى اليهودي الذي لا يُعرّف نفسه على أنه متدين، فتصفه بأنه شخص هرطوقي أو شرير، أو تصفه بدلا عن ذلك بأنه ناقص الهوية " **كرضيع وقع في الأسر**"، وبين المقاربة الغربية التي ترى في العلماني شخصا يتمسك بنظام من المعتقدات والقيم الأخلاقية، التي تُعنى بالبر بالإنسان وتتبع من خياره الحر[1]فنشأ جدل في الهوية اليهودية، هل الهوية تُبنى على أساس بيولوجي وفقا لصفات وملامح محددة، أم الهوية على أساس مجموعة من الصفات التي تتوفر في أشخاص معينين، أو تُبنى على أساس النسب للأسباط

الذين ضاع عشرة منهم في أيام السبي، أو على أساس الدين والاعتقاد؟ كلها جدليات لازالت حلولها بشكل نهائي غير موجودة، لأن اليهود في أيام السبي اختلطوا بالعنصر البابلي بالتزاوج والمصاهرة، فأعطوهم واخذوا منهم، خاصة وان قضية إثبات النسب حينها لم يكن قد فصل فيها، هل يثبت النسب للمرأة أو الرجل، إضافة إلى ذلك أن عديدا من اليهود السبايا فتنوا بمظاهر الحضارة، وما صار يربطهم بالدين إلا اللقب والانتساب، فكانت دعوة الأنبياء اليهود حينها داعية للثبات على القيم ووعود الرب، فما كانت تجد لها أذن صاغية، وبعد السبي كذلك والرجوع على يد قورش رفض بعض اليهود الرجوع، حيث تأقلموا مع حضارة البابليين وكرهوا استبدالها بغيرها من البقاع، فبقيت قضية الهوية اليهودية قضية جدلية أُدخل فيها خطأ من ليس منها، وانتسب إليها عديد من الدخلاء، وحتى اليهود الذين عادوا من السبي عادوا بتشريعات يهودية منقحة بتشريعات بابلية، اقتضتها الظروف والنوازل، بينما قلة قليلة بقت محافظة على شكل العبادة اليهودية الأصلية، فبقي الخلاف قائما في كيفية وشكل وطقوس عديد من الشعائر، وكانت الغلبة بطبيعة الحال لاثني عشر اسباطا العائدين من السبي، الذين سيتواضعون على التشريع اليهودي الجديد الذي سيرسم ويحدد معالم اليهودية الرسمية الجديدة، يهودية ما بعد السبي البابلي.

### 2.1. اليهود في العالم المسيحي والإسلامي

الشخصية اليهودية تصنع الجدل دوما حيثما حلّت، ففي التاريخ المسيحي كان لليهود شأن مع المسيح عليه السلام، إذ كانت دعوته موجهة إليهم بالأساس لإصلاح ما فسد من أخلاقهم وطباعهم، لكنهم سئموا منه ومن دعوته –خاصة الفارسيين– فعملوا على تشويه سمعته واتهامه بتهم لدى الامبراطور الروماني، الذي صدّق ذلك وأصدر أمره بالقبض عليه، وانتهى الأمر بصلبه، فنشأت عداوة بينهم وبين المسيحيين؛ أما تاريخهم مع الإسلام فكانوا أعرف الناس بنبي الإسلام قبل بعثته، لكن ما أن بُعث حتى كذّبوه وناصبوه العداء ودس المكائد ومحاولة قتله، فانتهى أمرهم إلى الدخول في حرب مع المسلمين، في واقعتي خيبر وابن النظير، وقد نزلت آيات من القرآن وأحاديث نبوية عديدة تُحذر من اليهود ومكرهم وعداوتهم وخطورة التعامل معهم، فيكونون بذلك كسبوا عداوة أصحاب الديانتين الكتابيتين.

عاش اليهود مشتتين بين حضارات العالم، فلذلك عايشوا المسيحيين والمسلمين في مناطق نفوذهم، فعاشوا في القسطنطينية وفي أراضي أوروبا الشرقية والغربية، كانوا مشهورين بالتجارة والمال، وإن كان يُضيّق عليهم الخناق تارة بعد أخرى، لكن لم يُلزمهم أحد على اعتقاد عقيدة معينة، كما كانت لهم الحرية في إنشاء مدارسهم وكنسهم ودورهم، وفي أرض الإسلام لا سيما الأندلس عاش اليهود كالإخوة مع المسلمين، وشاركوهم بعضا من شؤون الحكم تارة فكانوا مستشارين ووزراء وأطباء السلاطين، ولم يرغمهم أحد على اعتقاد عقيدة ولم يلاقوا تضييقا في أداء شعائرهم، غير ما كانوا يتعرضون إليه من المضايقات في بعض الأحيان وذلك لطبيعة تعاملهم مع الآخر، من نكث للعهد والغدر والخيانة؛ ففي الأزمنة الحاضرة عاش بين بلاد الإسلام والمسيحية شعب اليهود–الذي وصفه وول ديورانت أنه شعب عجيب– احتفظ من خلال كل ما مرّ به من الشدائد بثقافته

الخاصة، يعزيه ويلهمه دينه الخاص، ويعيش على هدي شريعته ومبادئه الأخلاقية، يخرج من بينه شعراؤه وعلماؤه وأدباءه وفلاسفته، وينقل البذور الخصبة بين عالمين متعادين[2]فهذا الشعب على العموم حاول جاهدا المحافظة على هويته في شكلها الأقصى، على الأقل على مستوى بعض الطقوس، ولغة تأدية هذه الطقوس، وإن كانوا عموما وسط البلدان التي استوطنوها لا يكاد الناس يفرقون بينهم وبين السكان الأصليين للبلاد، حيث أنهم في الشؤون العامة كانوا يتحدثون بلغة القوم الذين يعايشونهم، واشتغلوا بوظائف عدة من تجارة وفلاحة، وربما نالوا درجات راقية في المسؤوليات السياسية والاقتصادية، مثل ما نالوه في الأندلس، حيث برعوا في فنون وعلوم عصورهم، لكن دون أن يحول ذلك بينهم وبين إنكار انتمائهم ومرجعيتهم، وتأدية نسكهم وعباداتهم، على حسب الظروف التي كانت تتأرجح بين التضييق والحرية في الممارسة، غير أن نزعتهم الخبيثة تجلب لهم دوما التوتر والقلق والاضطراب، ففي عصر نبي الإسلام محمد ﷺ الذي تعاهد معهم على السلم والأمن والأمان، سرعان ما نقضوا عهدهم معه وتحالفوا مع قريش ضده، فقرر محمد ﷺ تأديبهم فهجم عليهم في واقعة بني قريضه المشهورة، وكذلك في العصر الحديث كان لهم خبر مع المسيحيين، إذ قاموا في الحرب العالمية الأولى بإقحام أنفسهم في الصراع، فناصروا قوات الحلفاء على قوات المحور، وبعد هزيمة الحلفاة نكّل النازيون باليهود أشد التنكيل، ودائما ما من صراع ينشب إلا ويقحمون أنفسهم فيه، آملين في أن يكون الصراع الأخير المؤذن بنهاية العالم وقيام مملكتهم العظيمة.

### 3.1. تبلور الفكر الصهيوني البديل عن الديانة اليهودية

المتتبع لتاريخ اليهودية يراها انتقلت في الأزمنة المتأخرة من لغة دينية إلى لغة قومية، ومن عقائد وعبادات وسلوكات إلى ممارسات هي بمثابة ردود أفعال لأزمات عاشها اليهودي في حقب تاريخية متفرقة، فظهرت هذه الممارسات في صورة ما يُعرف بالصهيونية، التي اقتبست تسميتها هذه من العهد القديم في محاولة إيجاد مرتكز لاهوتي للتسمية التي ستتبني عليها عديدا من الممارسات؛ فترى الصهيونية أن فكرتها القائلة بأن بني صهيون عادوا للأرض التي وعدهم الرب إياها، بعد أن تركهم عرضة للسبي والاذلال مدة من الزمن بين يدي البابليين وباقي الحضارات، وقد مثّل الرب في نص من نصوص المزامير بصفة المخمور الغافل الغير مذرك لما يدور حوله، وبعد صحوه من سكره وغفلته عمل على نصرة أبناءه وشعبه المختار والتمكين لهم في الأرض: " **فجربوا وعصوا الله العلي وشهادات لم يحفظوا، بل ارتدوا وغدروا مثل آبائهم، انحرفوا كقوس مخطئة، أغاضوه بمرتفعاتهم وأغاروه بتماثيلهم، سمع الله فغضب ورذل إسرائيل جدا، ورفض مسكن شيلو الخيمة التي نصبها بني الناس، وسلم للسبي عزه وجلاله ليد العدو، ودفع إلى السيف شعبه وغضب على ميراثه، مختاروه أكلتهم النار وعذاراه لم يخدمن، كهنته سقطوا بالسيف وأرامله لم يبكين، فاستيقظ الرب كنائم جبار معيط من الخمر، فضرب أعداءه إلى الوراء، جعلهم عارا أبديا، ورفض خيمة يوسف ولم يختر سبط أفراييم، بل اختار سبط يهوذا جبل صهيون الذي أحبه، وبنى مثل مرتفعات مقدسة**

**كالأرض التي أسسها إلى الأبد، واختار داوود عبده وأخذه من حظائر الغنم ومن خلف المرضعات التي به، ليرعى يعقوب شعبهن وإسرائيل ميراثه**" [3].

كانت اليهودية قائمة على أساس علاقة شعب مع الرب، لكن مع مرور الزمن قامت النزعة التمردية الأصيلة في هذا الشعب، والتي نماها تعرضهم للمضايقات والتنكيل من طرف الشعوب الأخرى، فنمت لديهم نزعة التمرد على الرب، وكأن لسان حالهم يقول: "**يأيها الرب لم تُوفّق في حمايتنا واستقرارنا، فسنعمل جاهدين بشتى الطرق والوسائل لنيل مآربنا وأطماعنا وصنع هيبتنا ومركزنا الإقليمي والدولي**"، وبناءً على ذلك قامت فكرة الصهيونية، هذه الفكرة التي نُسبت لجبل صهيون المقدس، لكنها في الحقيقة منظمة إرهابية أسسها يهود روسيا بعد منتصف القرن العشرين، فسمّوا أنفسهم عُشاق صهيون... وما لبثت المنظمة الصهيونية أن صارت مؤسسة سياسية استعمارية دولية ذات جهاز تنظيمي، اتخذ مؤسسوها من اضطهاد اليهود ذريعة لتنظيم حركة يهودية سياسية، تستهدف أول ما تستهدف تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين، بحجة حقوق اليهود التاريخية في فلسطين[4]فمع قيام عقيدة أرض الميعاد، تجاوز الفكر اليهودي كل أشكال القداسة والطقوسية، وصارت عقيدة الأرض هي القضية المركزية التي يُربّى عليها الأبناء، وتُنشأ عليها سياسة الدولة، فالانتماء اليهودي صار يُبنى على ذرية إسرائيل، وما وعدهم به الرب من مواعيد دنيوية وأخروية، وتشكل ذلك كله وتبلور في شكل ما يسمى بالعقيدة الصهيونية، التي صارت معادية لأشكال التدين المبني على العقيدة والشريعة اليهودية الأصلية، ولا تعترف إلا بمن يدين بالعقائد الصهيونية ذات التوجه الأيديولوجي السياسي، أكثر منه توجه ديني سماوي، فمنذ قيام الحركة الصهيونية وهي تتخذ جانب العداء الصارم لليهود المتدينين في كل العالم، ولا يقتصر عداؤها لهم بالموقف، بل حدث أن اغتالت رجالاتهم ودعاتهم وكمّمت أفواه الآخرين[5]، رغم أن الوصايا العشر حرّمت سفك الدم ونهت عن القتل، لكن الصهيونية استباحت دماء من يعارض نظرياتها وطموحاتها، وإن كان رجل دين حاخام، مما لا يدع مجالا للشك أن هذه الفلسفة تدين بدين المصلحة والمنفعة ، ولا تلقي اعتبارا أو تقديرا للمبادئ والأصول الدينية اليهودية، التي ترفعها في عديد من الأحيان على شكل شعارات جوفاء لا أثر لها في عالم الحقيقة والواقع؛ وباستعمال الوسائل الحديثة من إعلام وصحافة واستغلال نفوذ، صارت الصهيونية بديلا عن اليهودية، فكثيرا ما تُذكر اليهودية وعقائدها، لكن لا تُستحضر في التصور إلا بصورة الصهيونية الحاقدة على كل مخالف لعقيدة أرض الميعاد وملحمة المسيح المنتظر، وما يهبه لليهود بعده من ملك وتمكين في الأرض، فصار الشد على يد كل مشجع وناشر لهذه الفكرة بين أبناء اليهود خاصة، وقمع كل من يقف في سبيل نشر هذه الفكرة، بالإقصاء تارة، وبالقمع والقتل والترهيب تارة أخرى، ونلاحظ ذلك جليا بين أبناء اليهود أنفسهم الساكنين أرض فلسطين، كيف يعامل بعضهم بعضا من منطلق اختلاف شكل اللباس أو الالتزام ببعض الرموز الدالة على الانتماء لطائفة معينة، تُجاهر وتدعو لإحياء العقيدة اليهودية الأصلية –حسب رأيها–، ففي داخل المناطق التي يحتلها الصهاينة تعادي الصهيونية اليهود المتدينين وتضيق الخناق عليهم كثيرا، فالمرور عبر الحي المسمى "**مي شيريم**" الذي يقطنه اليهود الأرثوذكس

في الجزء الغربي من مدينة القدس، يجعل المرء يدرك حجم الأزمة السكانية الجديدة، ففي هذا الحي ذي الأزقة الضيقة لا يقطنه سوى اليهود الحريديم وعائلاتهم الكبيرة العدد، حيث تحوّل هذا الحي إلى جيب خاص بهم، ويتميز الرجال منهم بارتداء القلنسوات اليهودية السوداء الخاصة بهم والقمصان البيضاء، ويعيش الحريديم حياة لا علاقة لها بأسلوب الحياة الغربية الذي يتبعه أغلب الإسرائيليين من سكان القدس الغربية، حيث يعيش الحريديم ما يعتقدون أنها الحياة اليهودية الصحيحة [6]، فاليهود الحسيديم يُنعتون في الفكر اليهودي باليهود المتطرفين، فكانت لهم قديما عداوة مستحكمة مع الصدوقيين، وإن كان هذا الخلاف منشؤه ديني عقدي، ينبني على الإيمان بالشريعة الشفوية–التلموذ– أو إنكارها، وانتقلت العداوة في العصر الحديث ما بين الحسيديم والصهيونية، لكن شكل الخلاف تغير، فصار مبنيا على كيفية إثبات أو نفي الانتماء اليهودي، إضافة إلى ما ذكرناه سابقا من طغيان النظريات السياسية والأطماع التوسعية وسوء فهم لمواثيق العهد الإلهي، وظهر مؤخرا الخلاف الكبير على إسقاط الصلوات والاحتفال بالأعياد في الكنيس بسبب وباء كورونا القاتل، لكن الحسيديم لم يقبلوا إسقاط الاحتفال، إذ رأوا أنه تعدّ صارخ على الشريعة وأحكامها.

### 4.1. جدل اليهودية الدينية والصهيونية

لا يخفى علينا وجود جماعات وتنظيمات يهودية تعرب عن شدة تمسكها بتعاليم الدين اليهودي في مفهومه الإصلاحي الحديث والمتطور، هذه الجماعات تناوئ الصهيونية وتفند مزاعمها إلى درجة الوقوف وإياها على طرفي نقيض في كثير من الأحيان، ولنا في نشاطات المجلس الأمريكي اليهودي خير مثال على الموقف اليهودي المناوئ للصهيونية طيلة رُبع قرن من الزمن 1943–1968م[7]. فكثير من هؤلاء اليهود يرون أن الصهيونية لا علاقة لها باليهودية، وإنما هي نظرية يحاول أهلها استغلال اليهودية للوصول إلى مطامعهم التي تخدم أهدافهم الضيقة، والتي لا تستوعب مجموع الشعب اليهودي، حيث أن أصولها تخالف المبادئ العقدية والتشريعية لليهودية، إذ أنها تجعل كل شيء مستباح للوصول إلى الأهداف المسطرة، وإن كانت مخالفة للوصايا وللشريعتين المكتوبة والشفوية، فالمتدينون يبدلون قصارى الجهد للحفاظ على نقاء اليهودية وصفاء عنصرها من الشوائب الدخيلة والتسربات الأجنبية، تماما كما فعل النازيون بالنسبة للعناصر غير الجرمانية، أو التي لا تنتمي إلى العنصر الآري المتفوق، أما الأوساط المعتدلة فتحاول الوقوف بوجه طغيان المغالاة الدينية في تعصبها العرقي، وتشير إلى أن اليهودية قد تمازجت اثنيا خلال تاريخها مع عناصر دخيلة أكثر من مرة[8] فنظروا إلى كون اليهودية ديانة رحمة ومحبة ونعمة للبشرية، لا تهدف للانتقام من البشر المخالف لها، بل تهدف لغرس القيم السامية بين البشر، فعدّل الإصلاحيون بعض الأفكار الأساسية في الديانة اليهودية، فمثلا نادى جايجر بحذف جميع الإشارات إلى خصوصية الشعب اليهودي من كل طقوس الدين وعقيدته وأخلاقه وآدابه، مطالبا بالتخلي عن الفكرة الحلولية الخاصة بالشعب المختار كلية، وقد حاولوا الإبقاء على هذه الفكرة، مع إعطائها ذلالة أخلاقية عالمية جديدة، فجعلوا الشعب اليهودي شعبا يحمل رسالته الأخلاقية لينشرها في العالم، حتى يستطيع من يشاء أن يؤمن بها، كما أكّد الإصلاحيون أن اليهود شُتتوا في أطراف الأرض ليحققوا

رسالتهم بين البشر، وأن النفي وسيلة لتقريبهم من الآخرين وليس لعزلهم عنهم[9]. وعلى كل حال يمكن القول بأن اليهودية– في صبغتها الصهيونية– شأنها شأن الفلسفات والمذاهب العالمية، التي تختلق الوسائل التي تنجيها وتحقق أهدافها حال الضعف– وإن كان الاتفاق مع الشيطان كما يقال–،المهم تجد لنفسها مخرجا من المأزق، فالتشتت والاستبداد الذي تعرض له اليهود مع مرور التاريخ جعل طائفة منهم تتبنى ما يعرف بالصهيونية، ووجدت وسط جمهور اليهود قبولا، كونها تحقق هدف الاستقرار والمكانة العالمية والسيطرة على دواليب الاقتصاد والسياسة ومراكز صنع القرار، لأجل ذلك كما قلت خلق الناس في جميع المناطق الرئيسية من العالم المتحضر– إيديولوجيات جديدة استمرت في دورها الحاسم والتوليدي– فالنظم الدينية كانت تعكس الظروف الاقتصادية والاجتماعية المتغيرة ولأسباب لا نفهمها، كما نجد أن الحضارات الرئيسية قد تطورت في مسارات متوازية حتى عندما كان هناك احتكاك تجاري، لقد أدى ازدهار جديد إلى نشوء طبقة تجارية، فكانت السلطة تنتقل من الملوك والكهنة من المعبد والقصر إلى السوق، لقد أدت الثروة الجديدة إلى ازدهار ثقافي وفكري، وإلى تطور الوجدان الفردي كذلك، لقد أصبح الاستغلال وعدم المساواة أكثر وضوحا كلما تسارعت خطوات التغير في المدن، عندما بدأ الناس يدركون أن سلوكهم يلعب دورا مؤثرا على مصير أجيال في المستقبل[10]فالواقع اليهودي اليوم الذي يجد نفسه أمام عديد من التحديات، جعل للأحكام الشرعية إسقاطات وتفسيرات لا تُسقط الأصول الدينية اليهودية، ولا تُهمل المبادئ الصهيونية، إذ أن معاملات اليهود فيما بينهم، في سياستهم الداخلية تخضع لأصول الديانة اليهودية التي أقرتها النصوص ورجال الدين، بينما العلاقة مع الآخر والسياسة الخارجية تقوم على المنفعة والمصلحة اليهودية العامة التي تبلورت وتشكلت في صورة ما صار يُعرف بالصهيونية العالمية، فبقي الصراع حامي الوطيس بين الصهيونية من جهة، واليهود المتدينين من جهة أخرى، وإن كانت القوة والغلبة للصهيونية نتيجة ما تمتلكه من نفوذ سياسي واقتصادي وتعاطف ومساندة رجال المال.

## 2. الوضعية المسيحية من النشأة إلى عصر الحداثة

عاش المسيح عليه السلام في أزمة مع اليهود، الذين بُعث إليهم لإصلاح ما فسد من طباعهم وأخلاقهم وسلوكاتهم، فألّبوا الامبراطور عليه، لكنه حاول إتمام رسالة ربه وأداء مهمته ودعوته صابرا محتسبا، إلى أن انتهى المطاف باليهود إلى قتله والانتهاء منه ومن دعوته، وفعلوا ذلك فعلا وصلبوه ونكّلوا به – على حسب معتقد اليهود والنصارى–، لكنه نجح عليه السلام في تربية حواريه وتلامذته، الذين آمنوا برسالته واتبعوه وكانوا رفاقا له في دعوته، والذين سيكون لهم الفضل في إتمام دعوته عليه السلام بعد موته وغيابه.

### 1.2. حالة المسيحية قبل القرن الميلادي الرابع

بعدما انتهى أمر المسيح سواء بالقتل أو بالرفع إلى السماء، لم يكن حال حواريه على أحسن حال، إذ كانت حالهم تزداد سوءا عام بعد عام، وكانوا يتواصون فيما بينهم ويتبادلون الرسائل متواصين بالصبر والثبات

على الظلم الذي يتعرضون له، مثل ما نجد ذلك في رسالة بولس إلى أهل أفسس التي يقول في ختامها: "**أخيرا يا إخوتي تقووا في الرب وفي شدة قوته، البسوا سلاح الله الكامل لكي تقدروا أن تثبتوا ضد مكايد إبليس، فإن مصارعتنا ليس مع دم ولحم، بل مع الرؤساء مع السلاطين مع ولاة العالم، على ظلمة هذا الدهر مع أجناد الشر الروحية في السماويات**" [11]. فاضطروا إلى الابتعاد عن هذه البيئة والمحيط الذي شهد أحداث المسيح، لكن مع بولس الذي اجتهد في التبشير بالمسيحية اتسعت رقعتها وشعبيتها وعدد معتنقيها، خاصة نواحي أنطاكيا ومصر وكذلك في أوساط االرومانيين، لتشهد انتشارا رهيبا وأنصارا من مختلف الطبقات، لكن ما أن شعرت الطبقة الحاكمة بتهديد المسيحية لوجودهم وتهديدا لكيانهم حتى عملوا على وضع حد لها، فكان مسيحيو المنطقة الشرقية يعيشون في أمن وحرية ممارسة دينية، أما في الناحية الغربية فكانوا يشهدون اضطهادا ومضايقات فبدأت الاضطهاد والمطاردات والتضييق على المسيحيين عصر نيرون، لتمتد معاناتهم إلى غاية عصر الإمبراطور قسطنطين، ففي القرن الثاني كان المسيحيون يُعتبرون أنجاسا، لا يُسمح لهم بدخول الحمامات والمحال العامة، وكانوا كما حصل في عهد نيرون يُلقون للوحوش الضارية تفترسهم في مدرج عام[12]فكان السلاطين والحكام يصنعون بهذه المشاهد التنكيلية بالمسيحيين مشاهد ترفيهية عن أنفسهم وشعوبهم، حيث كانت تمتلئ المدرجات عن آخرها بمعية الإمبراطور، فكان التخلص من المسيحيين شكلا من أشكال الإنجاز، الذي يلقى به الإمبراطور مكانة ورفعة وقبولا لدى مواطنيه، وسجل القرن الثالث صورا أخرى من أبشع ألوان التعذيب والاضطهاد للمسيحيين، وإعدام كتبها المقدسة وآثار آبائها، وقرر اعتبار المسيحيين مدنسين، سقطت حقوقهم المدنية، وأمر بإلقاء القبض على الكهان وسائر رجال الدين[13]، ويمكن الفهم من هذا أن المسيحيين في هذه المرحلة حُرموا من حقوقهم الدينية والمدنية، فعندما يُلقى القبض على رجال الدين ويُعذبون ويقتلون، فتلك رسالة واضحة بأن شعائر المسيحيين وطقوسهم مرفوضة لدى السلطة الحاكمة، وكل مخالفة تلقي بصاحبها إلى الهلاك، وقد سمي القرن الرابع الميلادي بالنسبة للمسيحيين عصر الشهداء، حيث كان قتل وسفك دماء المسيحيين في هذه المرحلة بشكل رهيب وفظيع، وفي هذا العصر بالذات كان المسيحيون الشرقيون بمصر وضواحيها يعيشون حركية عقدية وفكرية ونقاشات وسجالات وكنائس مُعتمدة في شكل يعكس قدر الحرية التي كانوا يحضون بها، بينما في المنطقة الغربية –الرومانية– فكان المسيحي في هذه المرحلة مُخيّر بين أن يعيش بمعتقدات الأمة التي يعيش بين أحضانها وفي وسطها والتي تتبناها السلطة الحاكمة – وكانت عقائدهم وثنية في أغلب الأحيان– أو يعتنق المسيحية ويمارس طقوسها في سرية تامة متخفيا عن أعين الناس دون أن ينتبه لأمره أحد، لأنه إن اكتُشف أمره سيكون حكمه الإعدام، وإن نجا بنفسه يستطيع الفرار إلى غابة أو كهف متخفيا فارا بدينه وعقيدته، ولعل أصحاب الكهف الذين وردت قصتهم في القرآن الكريم نموذج لأولئك الذين اختاروا دينهم وعقيدتهم على كل مغريات الدنيا ففروا بها إلى قمم الجبال والكهوف، لكن نهاية قصة أصحاب الكهف تنبؤنا بالغد الأفضل والمشرق الذي تحوّل فيه المسيحيون من

اضطهاد وتعذيب وتنكيل وصغار، إلى تمكين وعزة ورسوخ قدم، حيث صارت المسيحية بعد هذا العناء الطويل الأمد ديانة رسمية.

### 2.2. وضع المسيحية بعد تبني قسطنطين لها ديانة رسمية

شهدت الديانة المسيحية اضطهادا ومضايقات في البيئة التي ظهرت بها أولا، حيث بعد قتل المسيح بالمكيدة المدبرة من قبل اليهود، لاقى حواريوه بعده متابعات ومضايقات، ما اضطر عديدا منهم إلى الفرار بدينه إلى البوادي والقفار، فبقي الحال تقريبا على هذا الوضع إلى غاية القرن الميلادي الرابع، الذي أشرقت فيه شمس المسيحية، ففي هذا القرن تبنى الإمبراطور قسطنطين الديانة المسيحية ديانة رسمية لإمبراطوريته، ومن ذاك الحين ظل الدين المسيحي خلال الألف عام من عهد قسطنطين إلى عهد دانتي، يهب الأفراد والدول ما ينطوي عليه من مزايا، ويقدمها لهم هبة خالصة، وكان هو نفسه في هذه الأعوام ينمو ويتكون، فجعل من صورة المسيح الفضائل مجسمة، يغري بها الهمجية على اصطناع الحضارة؛ وأوجد عقيدة جعلت حياة كل إنسان جزءا من مسرحية عالمية سامية، وأنشأت علاقة قوية ذات خطة بين الإنسان وبين الإله خالقه، الذي تحدث إليه في كتبه المنزلة، ووضع له فيها قانونا أخلاقيا، وجعل الكنيسة مستقرا لتعاليمه، ممثلة لسلطانه على هذه الأرض... لكن هذا الحلم اللذيذ قد تحطم على صخرة الطبيعة البشرية، ذلك أن المشرفين على السلطة القضائية البابوية، قد أثبتوا أنهم من طينة البشر، وأنهم متحيزون جشعون، بل نهمون يبتزون الأموال، وأن الملوك والشعوب كانوا أيضا بشرا مثلهم، يرفضون الخضوع لسلطة فوق سلطة أمتهم[14]، فالمسيحية مع قسطنطين صار لها وضعية مستقرة وأكثر قيمة وقوة، فصارت تُعقد لها مجامع كنسية بمباركة الاباطرة ورعايتهم ومشاركتهم في عديد من الأحيان- كما هو الحال بالنسبة لمجمع نيقية سنة 325 الذي حضره قسطنطين نفسه وأدلى برأيه ونقاشاته- وصارت تُبنى كنائس ودور عبادة من طرف القصر الحاكم وتحت إشرافه؛ لكن من جهة النية والمقصد من هذا الاعتماد الرسمي للديانة فقد اختلفت آراء الدارسين والباحثين في السبب المباشر في تبني قسطنطين للمسيحية، هل هو نتيجة قناعة دينية ورسوخ عقيدة- خاصة وأن أمه كانت مسيحية- أم أنها استراتيجية سياسية فرضها الواقع، حيث أن المسيحيين حينها كانوا أكثر عددا من الملحدين واليهود، وكان السبب المُعلن لركون قسطنطين للمسيحية هي رؤيا رآها، عندما كان في حرب وتعسّر عليه الانتصار، فرأى بأن أحدا وقف عليه في المنام وأمره برسم رمز الصليب على ثياب المحاربين أو راياتهم، فلمّا فعل ذلك انتصر، فعلم حينها أن تلك رسالة إليه بوجوب نصرة المسيحية ليكون النصر حليفه دوما، فانتصر للدين ورجالاته ودوره، حيث أعفت قوانين أخرى أملاك الكنيسة العقارية من الضرائب، وجعلت الجماعات المسيحية شخصيات معنوية قضائية، وأجازت لها امتلاك الأرض وقبول الهبات، وجعلت الكنيسة هي الوارثة لأملاك الشهداء الذين لم يعقبوا ذرية، كذلك وهب قسطنطين أموالا إلى المجامع الدينية المحتاجة إليها، وشاذ عددا من الكنائس في القسطنطينية وغيرها من المدن، وحرّم عبادة الأوثان في عاصمته الجديدة[15] فيُعتبر قسطنطين هو الباعث لرسالة المسيح، وإن كان بولس اعتنق المسيحية وقدم لها خدمة جليلة على مستوى الفكر

والفلسفة والحركة الدينية، فإن قسطنطين اعتنقها وقدم لها خدمة جليلة على مستوى توفير الغطاء السياسي والأمني لمعتنقيها، ورفعة أربابها وقداسها لدرجة الزعامة والريادة وصاروا لا يقلون أهمية ومكانة عن الإمبراطور نفسه، وأيا كان سبب اعتناق قسطنطين للمسيحية سواء قناعة أو لمصلحة سياسية رآها في ذلك، إلا أنه اعطى للمسيحية نفسا جديدا، وطّد أركانها وركائزها، وكان الراعي الرسمي لمجامعها ونقاشاتها وحركاتها الدعوية والعلمية، وربما كان هو السبب الرئيسي في تبني أوروبا للديانة المسيحية بشكل أو بآخر، فقسطنطين يعتبر أول من أنشأ التحالف بين رجل الدين ورجل السياسة، وجعل رجل السياسة هو الراعي الرسمي للنشاطات الدينية، وربما إملاءاته ورأيه قد يكون له الأثر على الحكم الديني، فتكون هذه الحظة نقطة الانطلاق للخدمات المتبادلة بين الرجل السياسي ورجل الدين، من حيث الحفاظ على المصالح والمكانة المرموقة لكليهما من حيث تأثير رأي كل منهما على الطبقة الشعبية والتركيبة الاجتماعية، هذه الخدمة الجليلة التي قدمها قسطنطين للمسيحية، سرعان ما تكون نقمة على المسيحية في قابل أيامها، إذ أن العلاقة الرفيعة التي نالها أرباب الكنيسة، جعلتهم يوطدون علاقتهم بالسلاطين والأمراء والأباطرة، وسرعان ما انقلب اهتمامهم وشغلهم من خدمة دينهم ودعوتهم، إلى خدمة مصالحهم وأهوائهم، فانطمست بصيرتهم ، وصاروا يتلاعبون بالدين على حساب شهواتهم وأهوائهم، فانقلب ذلك بالسلب والضرر على المسيحيين البسطاء، مما جعلهم يتأففون من هذا الواقع، وصاروا يمقتون الدين ورجالاته.

### 3.2. أثر التدين السياسي على الوضعية الدينية

هذه المكانة السامية التي نالها رجال الكنيسة كانت نعمة ونقمة، نعمة من حيث أنها فتحت المجال لحرية العبادة والتنسك، وجعلت الدين أكثر انضباطا ومهابة واحتراما، حيث أن رجاله صاروا في درجة الإمبراطور معنويا، وفي درجة القضاة من حيث السلطة الحكمية الزمانية والمكانية، ثم هي نقمة حيث أن رجال الدين بمرور الزمن لم يوظفوا تلك السلطة والمهابة لخدمة الدين، وإنما صارت خدمة للمصالح الشخصية التي طغت على المصلحة الدينية؛ كان التفكير الديني المسيحي في القرن الرابع الميلادي يخضع للكتاب المقدس وتفسيرات رجال الكنيسة، لكن مع مرور الزمن حاول رجال الكنيسة الانعتاق من قيود النص المقدس، تاركين العنان لفكرهم والمستجدات التي أملتها الظروف، فصاغوا المسيحية في صياغات فلسفية " **فكرية وأدبية وسياسية واجتماعية...**"، فبدل أن كان الدين هو الضابط لحياة المسيحيين، صارت حياة المسيحيين خاضعة لمتطلبات العصر متجاوزة لحدود النص، بوضعيات اختلقها رجال الكنيسة لأسباب مختلفة، لعل المصلحة الشخصية والأهواء والشهوات هي الدافع الرئيسي لهذا التبلور الديني الجديد، هذا التبلور جعل عديدا من المسيحيين يقفون موقف العداء والتنكر للكنيسة ورجالها، ما ولد لدى رجال الكنيسة ردة فعل قوية، وصلت بهم إلى حمل الناس على قبول المنهج الديني المغلف بغلاف الكاثوليكية، فأنشأوا ما يُعرف بمحاكم التفتيش، هذه المحاكم التي اجتمع رجال الكنيسة الكاثوليك سنة 1229م في تولوز من أجل فكرة إنشائها زمن البابا جريجوريوس التاسع، وكان هذا الاجتماع تمهيد لتقرير إنشاء مكمة يُقدم إليها كل من اتُهم في دينه (الكاثوليكي)

... وكان المتهم يُسأل أمام المحكمة ليُقرر ما يراه أمام الكنيسة، فإذا أبى الإذعان أُلقي به إلى زبانية التعذيب[16]وكان التعذيب المسلط حينها على المسيحيين المخالفين لآراء الكنيسة يأخذ أشكالا متعددة، تارة في التابوت المجهز بالمسامير، وتارة بالضرب المبرح الذي يُفقد المرء وعيه، وتارة حرقا بالنار، وقد ينتهي الأمر بالشنق ووضع حد للحياة.

وصلت الكنيسة في هذه المرحلة درجة أفقدت المسيحية قيمها ومبادئها الرفيعة المبنية على التسامح والأخلاق النبيلة الفاضلة، ففقدت المسيحية ممثلة في مرجعيتها الهدف الأسمى الذي بُعثت به، فقدت روح التسامح والمحبة، والتربية الروحية التي جاء بها المسيح، كما فقدت النظرة الحقيقية للدنيا والأملاك والأرزاق، إذ أن المسيح أمر بالإقلال من الدنيا وحطامها، وتخفيف العبء من حملها، لا أن نكتنز منها ما يعجز العاد عن عدّه، وليته كان ذلك بطرق صحيحة سليمة، فانحدر الإيمان الديني لدرجة مشينة، حتى صار الناس يؤمنون بمناقضات الإيمان لا بأصول الإيمان، خاصة بعد رؤيتهم لرجال الكنيسة يتصرفون بخلاف ما يأمرون به، ففتح ذلك الباب على مصرعيه لإنكار الإيمان، فمن السهل جدا أن يفقد الإيمان الديني هدفه الصحيح وينحدر إلى إيمان بالشر لا بالخير، بالكره لا بالحب، بالحرب لا بالسلام، بالشيطان لا بالله، من هنا أقول: " **لقد أرهقنا الدين وأدعياؤه حتى كادت عبارة الدين تقتصر على مدلولات سلبية لكثرة ما استغلوها لمآرب شخصية**"[17].

وكان المثقفون العديمو المبادئ هم أكثر الناس استفادة من هذه الظروف، حيث أنهم وظفوا معارفهم للتقرب من رجال الدين من جهة، وللتقرب للسلطان من جهة أخرى، فكانوا يساعدونهم في إيجاد حجج وتبريرات للتجاوزات التي بدت على السطح، كلنا نعيش في مجتمع وأفراد جنسية ذات لغة أُم وتقاليد ووضع تاريخي، إلى أي حد المثقفون هم خدم لهذه الوقائع؟ وإلى أي حد هم أعداء له؟ الأمر نفسه بالنسبة لعلاقة المثقفين بالمؤسسات(الجامعة، الكنيسة، النقابة المهنية) وبالقوى العالمية، التي في زماننا انتقت النخبة المثقفة إلى درجة غير اعتيادية، والنتائج هي كما يسوغها ولفرد أوين:" **أن الكُتّاب يدفعون كل الناس ويصرخون بالولاء للدولة**"[18]، فعند الموازنة أو الوضعية الوسطى بين الشعب والسلطة، فإن المثقف الخائن يقف مع مصلحته حيث بدت له، وإن كانت على حساب شرفه ومبادئه وقيمه ومبادئ الدين والقيم النبيلة، حتى وإن كان ذلك على حساب نيل عداوة الأقربين والأبعدين؛ من جهة أرى ظهر أناس وجدوا بأن الحل الملائم لهذه المرحلة يكمن في اعتزال المجتمع وعيش حياة الرهبنة والنسك، حيث حدث عام 1170م أن استأجر تاجر ثري يُدعى (بطرس والدو) جماعة من العلماء ليترجموا الكتاب المقدس إلى لغة جنوبي فرنسا، وخرج الرجل من دراسته لِما تُرجم باعتقاد جديد، هو أن واجب المسيحيين يقتضيهم أن يعيشوا كما يعيش الرسل، ليس لأحد منهم ملك خاص، وتحت سيطرة تلك الفكرة نزل الرجل عن جزء من ثروته لزوجته، ثم وزع الباقي على الفقراء، وراح يدعو الناس إلى الفقر، واجتمع حوله طائفة لبست مسوح الرهبان وعاشت عيشة العفة والطهارة[19].

هذه كلها كانت إشكالات يعانيها المتدين المسيحي السليم، يرى فساد الكنيسة أمامه، فينقلب شعور القداسة لديه إلى شعور استغراب وكره وتأسف، حيث ينقلب الدين ورجاله إلى رجال أعمال ومؤسسات تجارية

تُخضع كل شيء لمنطق المصلحة والمنفعة، وفي زمن صارت فيه الحرية مكبوحة والرأي الآخر مرفوض نتيجة التهمة التي ستُقدم ضد صاحبها ليُقدم للمحاكمة ثم التعذيب والتصفية، فتولدت من رحم هذه المعاناة طائفة مسيحية رأت في الانعزال عن الواقع الديني المر خير سبيل للحفاظ على تدينهم من جهة، والمحافظة على أرواحهم وعائلاتهم من جهة ثانية، لكن الطبقة العامة من المسيحيين كانت تغلي سخطا وتألما لواقع المعاش، هذا الواقع الأليم الذي كانت الكنيسة ورجالها هم أبطاله، فتولد كره الكنيسة ورجال الدين، فبدأت تظهر بوادر حركة دينية مسيحية جديدة، هدفها الأول والأسمى تنحية مكانة الكنيسة الكاثوليكية الدينية والروحية، ثم تنحية المسؤولية الدينية من أيدي البابوات، فيصبح دور البابا دورا إرشاديا لا علاقة له في الوساطة الإلهية ولا في المكانة النبوية شيئا، كما تهدف إلى كسر الرابطة بين بلاط الحكم والكنيسة، فتنفصل الوظائف الدينية عن الوظائف السياسية، فلا دخل لرجل الدين في السياسي لا من قريب ولا من بعيد، كما لا دخل للسياسي والحاكم في الوظائف الدينية المُخولة للكنيسة.

### 4.2. الحركية المضادة للتدين الدوغمائي

عندما تأزم الوضع الديني في الدول التي تدين بالمسيحية–الدول الأوربية خاصة– صار الناس في استعداد تام لنكران الدين ومعاداة كل أشكاله وصوره، فظهرت في القرن التاسع عشر ما يُعرف بالثورة الصناعية، كبديل عن الحركة الدينية، فقُضي على كل أشكال الإقطاع بثورة كان شعارها (اشنقوا آخر قسيس بأمعاء آخر امبراطور)، فسقطت مكانة الدين وأصوله، بما فيها أصل قداسة الرب، فظهر في الفكر الغربي نزعة وضعية علموية ألّهت العلم، اقتصرت منهجيا على مجرد تحليل المفاهيم العلمية تحليلا منطقيا، من دون تجاوز ذلك إلى بناء رؤية فلسفية استراتيجية ذات أثر في تغيير الوعي الاجتماعي، وكان وعي الوضعية المحدثة يقضي بتجريد القيم والعلوم المعيارية من قيمتها العلمية وتضعها خارجه، وهذا ما أدى إلى أن يفقد العمل العلمي هدفه الإنساني، لأنه جرّد الوعي من آليات التوجيه، وأخضع المجتمع إلى سطوة التقنية العلمية التي همّشت الإنسان وحوّلته إلى شيء مهيمن عليه كالطبيعة الصمّاء[20].

فالفعل دوما كلما كان قويا أدى لردة فعل أقوى منه، فالمرحلة الإقطاعية التي كانت ضد العلم ورجاله وآراءه ونظرياته، صار الظرف الراهن يؤله العلم ونتائجه ونظرياته، ويضرب بالنصوص المقدسة عرض الحائط، فصارت الطبقة الشعبية العامة تكره كل ما له علقة بالدين ورجاله ومؤسساته، في بادرة تقوم على استبدال القوانين والنظم الدينية بالنظم والقوانين القانونية التي يتطلبها الظرف الاجتماعي الراهن والواقع المعاصر المعاش، فظهرت محاولات الإقصاء من واقع حياة الناس، لما جرّه هذا التدين من أزمات ومحن على حياة ومعاش الناس؛ وبطبيعة الحال ستظهر محاولات استبداله بفلسفات وأفكار تخدم الإنسان وتحقق له ما لم يستطع تحقيقه الدين، فمن الطبيعي أن يتبنى الإنسان الذي يحاول أن يقصي الدين ويلغيه من مسرح الحياة فكرا فلسفيا يسهم في ذلك الإقصاء ومن ثمّ الإلغاء، ولذلك نجد اليوم في الفكر الغربي إحياء للنزعة

السوفسطائية والشكية واللاأدرية، لأنها نزعة تنسجم مع مزاج الإنسان الأوروبي المتمرد على الدين، والمأسور لسلطان ملذاته ومباهج الحياة المادية[21].

فإذا كان الإيمان لا يخدمنا في يوميات حياتنا، فينبغي استبداله بما هو أنفع وأصلح، إذا كان لدينا الإيمان، فينبغي أن يكون في صميم حياتنا، ولا أهمية للمعرفة والثقافة إذا كانتا لتجاهل دعوة المسيح[22]، ولا حاجة للدين الذي يخدم ويحفظ مصالح طبقة اجتماعية أو سياسية خاصة على حساب الطبقات الكادحة الفقيرة، هذا من الناحية الفكرية العلمية ومن ناحية المعايشة ويوميات الحياة، أما من ناحية الفكر السياسي الحديث الذي صار بديلا عن الفكر الإمبراطوري الذي كان حليفا للفكر البابوي الكنسي، فقد تغيرت العلاقة من محبة وخدمة متبادلة، إلى تخوف وتوجس وعداوة، وتحفّظ على أقل تقدير، حتى أنصار الكنيسة الكاثوليكية تحرروا من ذاك الضغط والتقييد والصرامة والاستعباد الذي كان مسلطا عليهم، إذ أبقوا على قداسة البابا، لكنها قداسة في محل القداسة الاختيارية، يختار من خلالها المتدين تقديم صكوك الغفران والتماس محو الذنوب من قداسة البابا بشكل اختياري دون التعرض للمسائلات والتحقيقات ذات الطابع الأمني المخابراتي، كما أن الباب صارت سلطته سلطة دينية لا تتعدى أسوار الكنيسة، ولا علاقة له بشؤون الحكم، وإن كانت علاقة فهي علاقة تقدي واحترام لا تبادل أدوار كما كان شائعا من قبل، كما أن سلطة الكنيسة صارت سلطة دينية محضة تتعلق بإمرام عقود الزواج ومسح ذنوب المذنبين وإقامة القداس ولها استقلالية تامة عن القصور وبلاطات الحكم.

فأصبح المتدين المسيحي اليوم يعيش أكثر حرية في ممارسة طقوسه ومعتقداته كما يشاء دون الخوف من تبعات، بل صار المتدينون المسيح اليوم يدعون إلى المبادئ الأخلاقية التي جاء بها المسيح، بعيدا عن الصراعات السياسية والأطماع الدنيوية والأهداف الجانبية، فنشر المبادئ التي يسعون لنشرها قصد نشر المحبة بين البشر والتبشير بالديانة ونشرها، لينال المبشرون المحبة لإلهية لتي تفضي بهم إلى نيل السعادة الأبدية.

### 3. الحركية الإسلامية بين المبادئ والواقع

#### 1.3. عصر النبوة والخلافة الراشدة تأسيس لدين الإسلام

بعث الله نبيه محمد ﷺ برسالة الإسلام للناس كافة، مهيمنا على كل الكتب والشرائع السابقة–حسب اعتقاد المسلمين– فلبث محمد ﷺ ثلاثا وعشرين سنة يبلغ رسالة ربه، معلم الناس عقيدة التوحيد وشريعة الإسلام التي تستوعب كل شعب الحياة، ويكون أساس الانخراط في هذا الدين هو الإيمان بأركان الإسلام الخمسة، ثم تتلوها أركان الإيمان الستة؛ وهذه الأركان ليست مشاعر مجردة، ولكنها تُقوِّم حياة الإنسان ويكون لها أثر طيب على حياته إن هو اعتقدها صدقا ويقينا؛ إن هذا الإيمان بالله والرسول واليوم الآخر، والإسلام لله ولدينه، أقام عوج الحياة، ورد كل فرد في المجتمع البشري إلى موضعه، لا يقصر عنه ولا يتعداه، وأصبحت الهيئة البشرية طاقة زهر لا شوك فيها، أصبح الناس أسرة واحدة، أبوهم آدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى[23]فيؤسس الإسلام لأخوة لم تعرفها البشرية من قبل، تسمى أخوة

الدين والعقيدة، من دخل تحت راية الإسلام تتبادل معه جملة من الحقوق والواجبات فرضا لزاما على كل مسلم.

وقد شهدت فترة الخلفاء الراشدين عديد من الفتن والخلافات والأزمات الدينية والسياسية، لعل أول تحد وقع فيه المتدين المسلم بعد وفاة نبيهم هو ظهور فئة ارتدت عن الإسلام بعد موت النبي ﷺ، واتبعوا رجالا ادّعوا النبوءة، وظهور فئة أخرى رفضت دفع الزكاة لدار المال، فوقع الجدل بين الصحابة بين مؤيد لحربهم ومعارض، وكاد هذا الخلاف أن يشق صف المسلمين، إلى أن استقر رأي أمير المؤمنين أبي بكر رضي الله عنه على قتالهم، فكانت حرب ذات جبهتين، ووقع فيها عديد من خيرة الصحابة ومن حملة كتاب الله، مما اضطر هذا الظرف إلى التفكير في جمع كتاب الله في كتاب مُدوّن، مخافة أن يندرس القرآن مع موت حامليه، لتندلع مرة أخرى أزمة الخروج عن عثمان بن عفان رضي الله عنه وإعلان العصيان عليه من طرف فئة من الخوارج الذين اتهموه بتهم استحلوا بموجبها دمه، فانتهت هذه الأزمة بمقتله رضي الله عنه في داره، لتندلع فتنة أخرى زمن علي رضي الله عنه مع معاوية رضي الله عنه بشأن الخلافة، فانقسم شمل المسلمين ما بين مؤيد لعلي ومؤيد لمعاوية رضي الله عنهما، وانعزلت طائفة أخرى وأعلنت الحياد لعدم علمهم بجهة الصواب، فوقع اقتتال بين الصفين وانتهى الأمر بإعلان إمارتين للمسلمين دون تنازل أحد الطرفين عن حقه.

وهذا الخلاف لا زالت آثاره باقية إلى يومنا هذا، إذ أن طائفة سموا أنفسهم الشيعة، من باب التعصب والاستنصار الزائد عن محله جعلوا لعلي رضي الله عنه مقاما لا يقل قدرا عن مقام الألوهية، ولا زالت ذكراه وذكرى ذريته وأبناءه حاضرة بطقوس الجنائز والمآتم المعروفة في ذكرى وفاته وأبناءه، مثل المآتم التي تُقام أيّام عاشوراء، وامتد أثر هذه المغالاة إلا كره وبغض وسب وشتم كل الخلفاء الدين سبقوه، وكل الصحابة الذين لم يكونوا في صفه يوم خلافه مع معاوية رضي الله عنهم، ليمتد هذا البغض إلى السيدة عائشة وكل مؤمن يخالف آراءهم في الفتنة ووقائعها، فبقي صف المسلمين يعيش توترا واضطرابا نتيجة تلك الأحداث ووقائعها، وهذه الخلافات كلها يمكن اعتبارها خلافات سياسية، لا علاقة لها في الفكر الديني والأصول الدينية شيئا، إلا ما وقع من تأويلات وتحليلات من طرف الدارسين لهذه المرحلة، والتي كانت أغلب دراساتهم قد ركبوا لها خلفيات ومبادئ عقدية وايديولوجيات مختلفة تخضع للمنطقة والبيئة والتصور العرقي والمذهبي، غير أن الخلاف على المستوى الديني لم يكن بدأ بعد في هذه المرحلة، لأن عهدهم بعصر النبوءة كان قريبا، ويعيش تابع التابعين مع التابعين، والتابعين مع الصحابة، وأحوال رسول الله وأقواله وأفعاله وسلوكاته لا زالت حاضرة مُعاشة فيما بينهم، فاستمر في هذه الفترة الإسلام الصافي النقي الذي لم تخالطه الشوائب الأفكار الدخيلة والفلسفات، لأن الخليفة كان وقافا عند كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وكان يستعين في الأمور المستجدة –النوازل– بالصحابة رضي الله عنهم، كما فُعل في جدل ميراث الجدة، وحكم شارب الخمر، وقطع يد السارق و... وفي هذه الفترة جُمع القرآن الكريم في مصحف واحد، وصار نظاما للجيش والحسبة ودار المال.

### 2.3. واقع التدين الإسلامي إلى غاية القرن التاسع عشر

كلّما بعُد العهد بعصر النبوءة كلما زاد ابتعاد المسلمين عن منهج دينهم القويم، واستجدت مسائل وإشكالات هي نتيجة حتمية لاحتكاك الفكر الإسلامي بالأفكار الفلسفية اليونانية خاصة التي كانت ذائعة الصيت حينها، فظهرت مشاكل وقلاقل، لعلّ أكبر مشكل عقدي ظهر في الأجيال الأولى الذي تحول إلى صراع سياسي أكثر منه ديني–في أيام حكم بني العباس–، وكان أمراء المؤمنين حينها يقولون بخلق القرآن، وكل قائل لهذه المقولة هو موال للسلطة الحاكمة، وكل معارض يُعتبر مخالف تُطبق عليه أحكام المؤامرة وإخلال النظام العام، وكان أكبر من يُذكر اسمه في هذه الفتنة هو الإمام أحمد ابن حنبل، الذي بقي ثابتا على رأيه السليم بعدم خلق القرآن، بينما قال بها من قال من العلماء حينها مخافة التعذيب والسجن، وفي هذه الفترة احتك المسلمون بأهل الديانات الأخرى –سماوية ووضعية– ودخلت عليهم عديد من الأفكار الفلسفية التي تثير الجدل والنقاش وتولد الأفكار والقضايا، فأثّرت على آرائهم العقدية التي أُلبست آراء فلسفية جدلية، وظهرت في هذه الفترة الآراء الفقهية –أبوحنيفة، مالك، الشافعي، ابن حنبل، الأوزاعي، ...–وتعرّف المسلمون على طبوع وفنون لم يألفوها سابقا، والتي ظهرت بينهم من خلال توسع الإسلام من خلال الفتوحات على شعوب وحضارات ذات عادات وتقاليد وأفكار مختلفة، فظهرت في ساحة الإسلام لغات مختلفة وطبوع موسيقى وغناء وفنون معمارية ومدارس علمية وفلسفية وتراجم أدبية وعلمية وفلسفية.

غير أن الإسلام في عمومه بقي محافظا على هيبته ومكانته الدولية والإقليمية، وإذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا أن محمدا ﷺ كان من أعظم عظماء التاريخ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به في دياجير الهمجية حرارة الجو وجذب الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحا لم يدانه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله، وقلّ أن نجد إنسانا غيره حقق كل ما كان يحلم به، وقد وصل إلى ما كان يبتغيه عن طريق الدين، ولم يكن ذلك لأنه هو نفسه كان شديد التمسك بالدين وكفى، بل لأنه لم يكن ثمة قوة غير قوة الدين تدفع العرب في أيامه إلى سلوك ذلك الطريق الذي سلكوه، فقد لجأ إلى خيالهم وإلى مخاوفهم وآمالهم، وخاطبهم على قدر عقولهم، وكانت بلاد العرب لمّا بدأ الدعوة صحراء جدباء، تسكنها قبائل من عبدة الأوثان قليل عددها متفرقة كلمتها، وكتمن عند وفاته أمة واحدة متماسكة، وقد كبح جماح التعصب والخرافات وأقام فوق اليهودية والمسيحية ودين بلاده القديمة، دينا سهلا واضحا قويا، وصرحا خلقيا قوامه البسالة والعزة القومية، واستطاع في جيل واحد أن ينتصر في مائة معركة، وفي قرن واحد أن ينشئ دولة عظيمة، وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في نصف العالم[24]فقد أدركت الأجيال الأولى للإسلام أنهم خير أمة أخرجها الله للبشرية كما نعتهم ربهم بذلك، وأن نور الإسلام الذي بين أيديهم ينبغي أن يشع نوره في ربوع العالم، في زمن كانت الإنسانية انحدر مستواها الأخلاقي لدرجة لا توصف، حيث كثرت الفواحش التي صارت في نظر بعض الأمم من المفاخر، كنكاح الرجل لأخته أو أمه، وانتشار الزنا المقدس، وأكل حقوق الناس، فانبهر الناس بالأخلاق السامية والآداب

الرفيعة التي تتشوف إليها الأفئدة التي فُطرت على السلامة، فدخلت الأمم في دين الإسلام أفواجا، حتى صار الإسلام قوة عالمية شع نورها في كل المعمورة، وما ذلك إلا بقوة الإيمان والعقيدة الإلهية الراسخة في القلوب، والأخلاق الرفيعة التي لا تستثني أحدا من البشر من التمتع بها؛ إن ما كان يصنع هذه المكانة هي قوة العقيدة في نفوس المؤمنين، والأنفة العربية التي تجعل العربي تأخذه الحمية على قومه وأهل ملته فلا يرضى الهوان والذل وإن كان على حساب روحه وماله وولده؛ إن العقيدة الإسلامية لم تكن قوة غالبة وحسب في إبّان النشأة والظهور، ولكنها كانت قوة صامدة بعد مئات السنين ... ولقد تداولت الدول بقاع الأرض من القرن السابع للميلاد إلى العشرين، قامت دول إسلامية ثم انهارت أمام المنافسين من أبناء دينها أو أبناء الأديان الأخرى، وحدث في فترة من الزمن خروج المسلمين من أوروبا الغربية ودخولهم إلى أوروبا الشرقية، ودانت دولة دمشق وبغداد وقرطبة والقاهرة، وقامت دولة الأستانة أو الأسطنبول، ثم ظلت هذه الدول كفؤا للدول الأوربية مجتمعات أو متفرقات، حتى تداعت أركانها وتصدع بنيانها، وبقيت قائمة لاختلاف الطامعين في ميراثها على تقسيمها، وتلاحقت الضربات على البلاد الإسلامية بين هزيمة واضطهاد وتمزيق وتفريق، حتى تمكّن منها المستعمرون، فلم تبقى منها واحدة تنعم بقسط من حرية الحكم وسيادة الاستقلال[25].

### 3.3. وضع المسلمين في العصر الحديث

نتحدث عن العصر الحديث الذي يمكن تحديده من سقوط الدولة العثمانية ووقوع أغلب الدول العربية تحت وطأة الاستعمار الأوروبي المدعوم أمريكيا، هذا الاستعمار الذي عمل على طمس كل مظاهر الهوية الإسلامية واستبدلها بالمظاهر الغربية التي تجعل من هذه الدول مجهولة الهوية إن نالت استقلالها، فنالت هذه الدول العربية استقلالها فوجدت نفسها غريبة عن لغتها الأم ودينها الإسلام وتاريخها المجيد، ووجدت بعضا من أبنائها ممكن تكونوا تكوينا غربيا يحاربون مظاهر هوية أوطانهم لصالح الغرب، وحتى الدولة التي كانت عاصمة آخر خلافة إسلامية –تركيا– استبدلوا حكمها بحكم علماني المتمثل في كمال أتاتورك، فعمل على محو آثار الإسلام بداية من الهندام مرورا بإبطال الشعائر الدينية –كالأذان– وتغيير بعض المساجد إلى متاحف ومراكز تسلية، فعمّ البذخ والمجون والاغتراب للهوية والمبادئ أعلى مستوياته،فمع مطلع القرن العشرين كان الهوان قد ساد بلاد المسلمين، وطغى الجشع والطمع على القلوب والنفوس، فصارت الأمة كثيرة العدد لكنها لا تخيف بعوضة، وصدق حديث رسول الله ﷺ حيث قال: **(يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت )**[26]. وحقيقة عند مشاهدة أمر المسلمين نجد أن الدنيا صارت مقدسة، وصار الحرص عليها على حساب العرض والشرف، وعلى حساب صلة الرحم، وعلى حساب زهق الأرواح نسأل الله السلامة والعافية.

المسلمون في العصر الحالي لم يكونوا بمنأى عن تحدياته، والمستجدات التي مست علاقات الأفراد فيما بينهم، وعلاقة أبناء المجتمع في سبل النهوض أو التهاوي بمجتمعهم من حيث المبالاة من عدمها، وقبل ذلك كله نظر المسلم إلى علاقته بربه، وما ينتج عن تلك العلاقة من استقامة سبيل وسلامة حال وفلاح مآل، فالملاحظة العابرة السطحية لتدين المسلمين اليوم، يرى أن الدين غائب وأشكال التدين بعضها حاضر فقط، فعمّ ذاك التدين الخالي من جميع معاني الديانة، إنه "**تدين مظهراتي**"، إنه الخواء الروحي الذي يقلب المعاني الروحانية لتصير مقيدة بالمعاني المادية، أو بالأحرى شلل تكابده نفوس عليلة تحاول رفع سقف مكاناتها فقط في حيز المراءو الترائي بالصفات الخارجية التي تُراعي شكل الطقوس والعبادات لا أبعادها ومقاصدها، لعلّ أهم أسباب ذلك نقاط ثلاثة هي:

### 1.3.3. الخطاب الديني السقيم

خطاب ديني لا يوقظ همة، ولا يبعث عزيمة، ولا يشحذ طاقات، خطاب تنويمي أكثر منه انبعاثي حركي، خطاب اعتنى بتنميق الكلمات والعبارات –من سجع وطباق ووو– ولم يعنى بالأهداف الحقيقية للخطاب – الأمر بالمعرف والنهي عن المنكر–، حتى صار خطابنا يدور في نقاط محدودة معلومة.

لا ننكر أن من آفات كثير من خطابنا الديني، أنه أعطى العقل إجازة طويلة وربما دائمة، فهو معطل عن وظيفته في فهم الدين وفهم الحياة، وكل اعتماده على التقليد والتلقين، لا يعطي عقله حق المناقشة لما يلقنه، ولا حق التحرر من تقليد السابقين، بل ألقى بزمامه إليهم، وأطفأ الشمعة التي نحه الله إياها ومشى في الظلمة...لم يمنح عقله فرصة ليبحث، وسمح للأباطيل أن تغزو فكره، وللضلالات أن تملأ ساحته...راجت عند الناس قصص الجن والعفاريت التي تركب الإنسان وتتحكم فيه وتنطق على لسانه تسخره لما تريد، سوّق ذلك بعض الوعاظ والخطباء، وصدّق الناس ذلك[27]

### 2.3.3. عداء السلطة للأشكال والنشاطات الدينية

السلطة في بلادنا الإسلامية تعتبر الحركة الإسلامية خصمها الأول وعدوها اللدود، وقد تتحالف أو تتقارب مع اليمين أو اليسار، ولكنها لا تتحالف مع الحركة الإسلامية بحال[28]. فالخطاب الديني عادة هو الذي يوجه طريق المسلم ويستنهض همه وطاقاته، لكن إذا كان هذا الخطاب خطابا دوغمائيا، يربي المسلم دوما على التسليم والرضا لكل ما يحل عليه من المحن والمصائب دون أن يحاول رفع لغبن على نفسه، خطاب في أغلب حالاته يشجع الظالم المستبد على ظلمه، ويقول للضارب اضرب وينادي المضرون أن لا تتأوه، خطاب أغلق باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورأى بأن المنكر فيه حكمة لا نعلمها ، لكن الذي أمره وابتعثه يرى أبعاده الإيجابية على الأمة والمجتمع، وظهرت فلسفات جديدة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، وعقيدة الولاء والبراء؛ هذه أمور كلها تجعل المتدين في حيرة من أمره، ويرى بأن التدين صار متلبسا بسياسات وأيديولوجيات هي إلى المصالح الشخصية أقرب منها إلى المصلحة والمقصد الديني، ولا نخفي أمرا صار يظهر جليا للعيان في واقع المسلمين، وهو أن الخطاب الديني الحالي صار يدفع بالمثقفين

دفعا إلى الإلحاد، لأنهم يرون أن الخطاب الديني اليوم لا يصنع المسلم الذي ابتغاه الله ورسوله، مسلم قوي شجاع عزيز كريم شهم، وإنما يصنع مسلما جبانا ضعيفا ذليلا، في حين أن رسول الله ﷺ كان دائما يتعوذ من الجبن، ويربي المسلم على الشهامة والعزة. ومن جهة أخرى السياسات العربية خاصة صار يزعجها كل أشكال التدين، فيزعجها الحجاب واللحية ومظاهر الالتزام خاصة في الإدارات ومراكز المسؤولية، فكان ذلك كله عائقا في طريق الشباب المتدين، الذي يساوم في أغلب الأحيان خاصة الفتيات، إما نزع الحجاب والظفر بمنصب عمل، وإما الرفض المستمر بسبب الالتزام بالتستر والحشمة والحجاب، والإشكال ذاته يتلقاه الذكور والأمثلة على ذلك كثيرة جدا.

### 3.3.3. العكوف على الجمود والتقليد

عصرنا اليوم له حاجات ومشاغل خاصة به، تختلف عن تلك التي أملت على الفقهاء والأصوليين القدامى قواعدهم ومناهجهم؛ إن معالجة مشاغل عصرنا ومشاكله تتطلب تجاوز القيود المنهجية التي قيّدت بها المعرفة الدينية في الماضي، أعني التعامل معها بمرونة، والنظر إليها من زاوية النسبية ومن منظور تاريخي...والرجوع مباشرة إلى عمل الصحابة[29]فالعالم اليوم يعيش مستجدات غير التي عاشها رسول الله ﷺ وصحابته والإمام مالك والإمام أحمد، مما يستدعي الاجتهاد في المسائل المستجدة، من سياسات دولية، ومعاملات اقتصادية، ومعاملات مالية، وشؤون اجتماعية وأسرية، وها نحن اليوم على سبيل المثال نعيش في زمن وباء كورونا، الذي جعل المسلمين يقعون في أحكام فقهية وجدليات لم يسمعوا بها عبر التاريخ، من غلق للمساجد وتعطيل للجمع والجماعات، وصلاة العيد في البيوت، والنهي ع المصافحة والملامسة، وعدم تلبية دعوات المؤدبات، وإقامات زواج سرية دون ضرب للدف ولا ولائم. إن تحرير العقل المسلم كقضية من قضايا أزمة الفكر الإسلامي المعاصر، يجب أن تفهم على أنه تحريره من الجمود والتقليد الأعمى، وتحريره من الغرور، وتحريره من الهوى، وتحريره من الجمود والتقليد الأعمى للسلف، سواء أكان هذا السلف سلفنا نحن المسلمين، أم الحضارة الغربية، فالجمود النصوصي آفة، سواء أكانت هذه النصوص من موروثنا نحن أم مستوردة عن الآخر الحضاري[30].

### خاتمة

لو بُعث الأنبياء اليوم إلى أقوامهم من جديد لبقوا حائرين من حالة التدين، لأن الدين الذي جاءوا به تغيرت كثير من ملامحه، إن لم نقل أنه طُمس واختفى من الوجود.

اليهود لم يُكتب لهم النصر المطلق إلا بعد موت النبي المؤسس، إذ بعد موته دخل بهم النبي هوشع إلى الأرض المقدسة وبذلك أتم الله عليهم نصره وتمكينه، وفي الديانة المسيحية لاقي المسيحيون بعد موت النبي المؤسس اضطهادا ومضايقات، ولم يتم لهم النصر والتمكين إلا بعد سبع قرون، بعد تبني قسطنطين المسيحية دينا رسميا لإمبراطوريته، أما في الإسلام فقد تم النصر وكمُل الدين في حياة النبي محمد ﷺ، ففتح الله عليهم

مكة، وأتم الله تنزيل القرآن على النبي المؤسس.

في العصور الأولى للديانة يكون الالتزام بها وبتعاليمها بنسبة عالية جدا، تكاد تحافظ على نسبتها التي تركهم عليها النبي المؤسس، لكن بعد قرنين أو ثلاثة تبدأ معالم الدين تتنقض الواحدة تلو الأخرى، وكلما مرّ الزمن زادت الهوة، حتى يصير التدين مرتبطا برموز وعادات وطقوس غير مفهومة المعنى.

إذا تحدثنا عن القمع الديني، نجد أن اليهودية والمسيحية كانتا أكثر اضطهادا من الإسلام، فاليهود تعرضوا للسبي الذي شتتهم وكان له أثر كبير على مستقبل الديانة اليهودية، المسيحية كذلك ما إن انتهى أمر المسيح حتى عاشوا مطاردين من قِبل اليهود من جهة، ومن الرومان وغيرهم من جهة أخرى، فعاش أصحاب الديانتين هذه في رعب شديد لمدة طويلة ما اضطر أكثرهم إلى ترك ديانتهم نتيجة الضغط والخوف، بينما الإسلام عاش أهله في أمن وأمان وقوة وتمكين، فكان الإسلام ملاذا لكل النفوس الباحثة عن الراحة الجسمية والنفسية، فدخل كثير من أهل الديانات التي تعيش توترا تحت ظل الإسلام، إما قناعة ويقينا بالإسلام وكل ما يدعو إليه من عقيدة وشريعة أخلاق، ومنهم من دخله فقط بحثا عن الأمن والأمان.

يمكن أن تتلخص أزمة الديانات الإبراهيمية الثلاثة، أن أحكامها تقف في موقف المعارض لسياسات دولية؛ فالسياسة اليهودية الرسمية قائمة على عقيدة الأرض والزعامة الدولية، وعقيدة الهيكل التي ينبغي أن يُعاد إقامتها وتشكيلها، بينما اليهودية الرسمية تدعو للمحافظة على العهد الإلهي المتمثل في عبادة الله وعدم الإشراك به، والمسيحية السياسية قائمة على إثارة الحروب والقلاقل واستنزاف ثروات الشعوب الضعيفة، ونشر الكراهية والنزاعات الدولية، بينما المسيحية النبوية الرسمية تدعو إلى الإيمان بالمسيح المخلص الذي فدى نفسه على الصليب تكفيرا عن الخطيئة البشرية، ويدعو إلى المحبة للإله وللبشر والتسامح والسلام البشري، والإسلام السياسي يدعو المسلمين إلى الصلاة والزكاة والحج، لكن لا ينبغي أن يتدخل الدين في شؤون الاقتصاد الوطني والسياسة الوطنية وعلاقاتها الدولية ووو، بينما الإسلام النبوي الرسمي يقول بأن الإسلام وتعاليمه تدخل في كل شؤون الحياة دون استثناء.

فمن أجل ذلك وقع صراع وتنازع بين أهل الديانة فيما بينهم، بين من آمن وصدق واتبع الديانة السياسية، فصارت مصالحه مقضية وشؤونه ميسرة وهو يعارض كل فكر يحاول التشويش على هنائه واستقراره، وبين أولئك الذين ينادون بوجوب العودة إلى المنابع الأصلية للديانة، وهؤلاء هم الذين يعيشون مضطهدين وحقوقهم مهضومة، ففي أغلب الأحيان يعيشون فقرا وحرمانا. لذلك نحن نعيش اليوم عصرا هو عصر غربة الأديان، ولو بُعثت الأنبياء مجددا لأنكروا الحالة التي يجدون عليها هؤلاء الذين يدّعون انتسابهم لديانتهم ودعوتهم.

ومن التوصيات التي يمكنني اقتراحها في خاتمة هذه الدراسة هو إبعاد الدين عن الجدليات والوصايا السياسية، وأن يبقى المتدين – وأئمته على وجه الخصوص–مبتعدين عن النشاطات السياسية والحزبية، والتزام الحياد قدر الإمكان، وأن يتم فصل المؤسسات الدينية عن الوصاية السياسية، حيث يكون رجل الدين رجل حر في فكره واجتهاده الفقهي والديني.

**الهوامش:**

1- عينات رامون، (2007)، **العلمانية اليهودية كتحد أمام اللاهوتيين اليهود المعاصرين**، مجلة مركز الدراسات المتعددة المواضيع للأديان التوحيدية، جرمانا، سورية، ع3، ص19-20.

- وول ديورانت، (1988)، **قصة الحضارة**، ترجمة: زكي نجيب محمود، دار الجيل، بيروت، لبنان، (5/14).2.

3 - مز 78: 56-71.

4-أحمد سوسة، (2003)، **أبحاث في اليهودية والصهيونية**، دار الأمل، الأردن، ص145 .

5- محمد نمر المدني، (2009)، **أعداء الغرب**، ط1، دار رسلان، دمشق، سورية، ص337.

6-- المرجع نفسه، ص337-338.

7- أسعد رزوق، (1971)، **قضايا الدين والمجتمع في إسرائيل**، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، مصر، ص6.

8- المرجع نفسه، ص64.

9-عبد الوهاب المسيري، (1999)، **موسوعة اليهود واليهودية**، ط1، دار الشروق، القاهرة، مصر، مج5، ص823.

10- أرمسترونغ، (1996)، **الله والإنسان**، ترجمة: محمد الجورا، ط1، دار الحصاد، دمشق، سوريا، ص40..

11 -أفسس 6: 10-12

12 - توفيق الطويل، (1991)، **قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام**، ط1، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، مصر، ص35.

13 - أحمد شلبي، (1998)، **المسيحية**، ط10، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، ص83.

14 - وول ديورانت: المرجع السابق، ص ص 17-22.

15 - المرجع نفسه.

16 -سليمان مظهر، (1995)، **قصة الديانات**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ص439.

17 - أديب صعب، (2015)، **دراسات نقدية في فلسفة الدين**، ط1، دار النهار، بيروت، لبنان، ص31.

18 - إدوارد سعيد، (2003)، **الآلهة التي تفشل دائما**، ترجمة: حسام الدين خضور، التكوين للطباعة والنشر، لبنان، ص11.

19 -سليمان مظهر: المرجع السابق، ص436-437.

20 - مجموعة من كبار الباحثين، (2012)، **فلسفة الدين**، ترجمة: علي عبود المحمداوي، ط1، دار الأمان، الرباط، المغرب، ص23.

21 - المرجع نفسه، ص35.

22 - أوليفيهروا، (2012)، **الجهل المقدس**، ترجمة: صالح الأشمر، ط1، دار الساق، بيروت، لبنان، ص11.

23 - أبو الحسن الندوي، (2004)، ماذا **خسر العالم من انحطاط المسلمين**، مكتبة الإيمان، القاهرة، مصر، ص94.

24 - وول ديورانت (47/13)..

25 - عباس محمود العقاد، (1971)، **القرآن والإنسان**، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ص548.

26 - أبي داوود، (2009)، **سنن أبي داوود**، ترجمة: شعيب الأرناؤوط، ط خ، دار الرسالة العلمية، دمشق، سورية، ج6، ص355.

27 - يوسف القرضاوي، (2004)، **خطابنا الإسلامي في عصر العولمة**، ط1، دار الشروق، القاهرة، مصر، ص76.

28 - يوسف القرضاوي، (1406هـ)، **الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف**، ط3، مطابع الدوحة الحديثة، قطر، ص17.

29 - محمد عابد الجابري، (1996)، **الدين والدولة**، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، لبنان، ص12.

30 - محمد عمارة، (2012)، **أزمة الفكر الإسلامي المعاصر**، دار الشرق الأوسط، القاهرة، مصر، ص14.